تفتيت الحقيقة بداية التحول عنها

أصاب جهاز «التليفزيون» عندى عطل مبهم فلم تظهر الصورة المرتقبة، ونظرت إلى الجهاز الجاثم فى مكانه لا يؤدى عمله نظرة استغراب! وتحسسته بيدى فخيل الى أنه لا ينقص شيئا من آلاته الجلية والخفية..

وأخيرا جاء العامل المتخصص فى إصلاحه، واستبدل بجزء تالف منه جزءا صالحا، واستأنف الجهاز عمله، وشرع يحقق الفائدة المرجوة منه!!

وقلت فى نفسى: إن الجهاز كله توقف عن أداء رسالته حتى تعاونت أجزاؤه الصغار والكبار على تحقيق وظائفها المنوطة بها!!

ولا عجب فقد تتوقف الدبابة عن السير والقتال لقطعة تنقصها فى مقدمتها أو مؤخرتها..

وقد يتعطل مصنع عن الانتاج تكلف إنشاؤه الألوف المؤلفة من الجنيهات لأنه يفتقر إلى تكملة لا تساوى مائة جنيه..

وهكذا شئون الحياة المادية والأدبية قد يصيبها عطب فادح لأن شطرها أو أغلبها موجود، وبقيتها الأخرى مفقودة عن خطأ أو تعمد.

ومن ثم قد ترى أمامك أشياء صالحة، ولكنها قليلة الجدوى لأنها مبتورة، وما تتم قيمتها وتبرز ثمرتها إلا إذا دارت الحياة فيها وفيما يكملها، وعندئذ ينطلق التيار فى دائرته المغلقة فيسطع النور..

إن تعاليم الإسلام كذلك، لا تصلح الحياة وتقيم المجتمعات إلا على النحو الذى شرحنا..

وعناصر الوحى تشبه عقاقير الأدوية لا يتم الشفاء بها إلا إذا أخذناها كما جاءت.

أما إذا طرحنا عقارا، وتناولنا آخر فلن يذهب لنا سقام..

وقد وجدت أن كثيرا من علل المسلمين الفكرية والنفسية، بل عللهم الاقتصادية والسياسية ترجع إلى أنهم يجدون من بعض النصوص ويهزلون مع بعضها الآخر، فلا يحصدون من هذا التناقض إلا ضياع النصوص كلها..!

ولا يفيدون من النصوص التى عملوا بها - فيما يزعمون - شيئا طائلا!

لأن وجودها المنقوص فى المجتمع كوجود جهاز «التليفزيون» الذى سقت لك خبر عطله أول هذا المقال..

تأمل معى هذا الحكم الشرعي فى فرع من فروع الفقه الاسلامي..

يقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا** ﴾ [البقرة: ٢٣١].

الى هنا يمكن تقدير الحكم العملى فى شأن يتصل بكيان الأسرة، وربما لا يشغل العلماء أنفسهم عند تقرير الحكم بأبعد من ذلك عند إيراد النص..

أفهذا ما فعل القرآن الكريم؟ لا، لقد أعقب ذلك بخمس جمل تتضمن فنونا من النصح والتأديب والتربية يضيع المجتمع إن أضاعها.

فقال جل شأنه:

(١) «ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه».

(٢) «ولا تتخذوا آيات الله هزوا».

(٣) «وأذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به».

(٤) «واتقوا الله».

(٥) ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وعندما توجد فى بلادنا أحكام الطلاق ولا توجد معها بقية المعانى التى صاحبتها فى هذه الآية فسوف يلعب بكتاب الله، ولن تزيد الأمة إلا خبالا..!!

خذ مثلا آخر، لقد نهى الاسلام عن السرقة وأمر بقطع يد السارق، بيد أن هذا الحد من حدود الاسلام يكون خيرا وبركة مع إحياء أوامر الله كلها وإقامة شعب الايمان الكثيرة التى تسد يقينا كل ثغرة، وتمنع أى غبن، وتطارد آفات البطالة والجوع عند البعض، وآفات النهب والحيف والسرف عند البعض الآخر.

أما مع رفع كل رقابة عن طرق الاكتساب وإتاحة الثراء من شتى الوجوه الحرام، وإيقاع الضعاف فى عقابيل البأساء والضراء، فالأمر يحتاج الى تبصر فى التطبيق.

ومعاذ الله أن نتريث فى إقامة حد من حدود الله، ولكنا نقول مقالة الحسن،

وقد رأى الشرطة تقبض على لص فقال: سارق السر يسعى به إلى سارق العلانية..!!

وما كذلك دين الله..

وسمعت متحدثا فى الدين يذكر أنه لا حدود للمهر، ويستشهد بقصة المرأة التى اعترضت عمر بن الخطاب لما أراد تقييد المهور.

والقصة صحيحة، ولكن المتحدث قليل الفقه فى الاسلام ضعيف الشعور، بمآسى المسلمين اليوم.!

إن الجمهرة من الشباب ألفت أن تقضى صدر عمرها، ولا أقول شطره، فى التسول الجنسى والانحراف الشائن، وكان تعسير للحلال سيتبعه حتما تيسير الحرام.

فكيف يلقى فقيه ربه بإقرار هذه الحال، أو إقرار ما يؤدى إليها يقينا؟؟

إن قصة عمر مع المرأة المعترضة تفهم فى جو كان الرجل يستطيع فيه الزواج مثنى وثلاث ورباع.. وكان الحرام يقع فلتات نادرة أو استثناء من قاعدة عامة.

أما اليوم فان العرف السائد بين جماهير المسلمين فى الزواج والمهور والهدايا، لا صلة له بتقوى الله، ولا إشاعة الاستعفاف، ولا إقرار الطهر النفسى والاجتماعى.

إنه عرف يقوم فى جملته على رذائل الرياء، والكبرياء، ورغبة أسر كثيرة فى الانتفاخ والتعاظم.

إن الاسلام كل لا يتجزأ، والشبكة التى تنسج تعاليمه الدقيقة تفقد جداوها عندما تخرق من جانب واحد، فكيف إذا تعددت فيها الخروق، وتفاحش الإهمال والتلف؟؟

والواقع أن هجر بعض الأحكام الاسلامية، وإلف بعضها الآخر هدم لمبدأ السمع والطاعة المأخوذ على جماعة المؤمنين.

فإن تقسيم الوحى الإلهى على هذا النحو لا يعدو أن يكون تحكيما للهوى الشخصى فيما ورد، فما أعجبنا قبلناه وما لم نسغه رفضناه.

وهذا قريب من مسلك المشركين أنفسهم مع رسول الله، فإنهم لم يردوا كل ما جاء به، بل وافقوه على البعض، وحاربوه على البعض الآخر، ولذلك أمره

الله بالثبات على الكل وقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢].

واتباع الهوى فى استبقاء حكم واطراح آخر معناه أن ما استبقى ليس لأن الله أمر به!!

فقد أمر بغيره كذلك، فلماذا ترك؟

معناه أن ما استبقى ظفر بالحياة لأنه أرضى رغباتنا فقط.

ولو صادمها لطوحنا به هو الآخر.

وقد نبه القرآن الكريم الى أن فساد بنى إسرائيل نشأ مع هذا العوج فقد أخذت عليهم المواثيق بأمور سواء، ففعلوا بعضها وتناسوا بعضها، لأنهم يتصرفون وفق شهواتهم، ولا يرتبطون بأمر الله ونهيه!!

فكان التعقيب الالهى على هذا السلوك: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥]

«الأمة الاسلامية اليوم موزعة على عشرات الدول، وأمر الاسلام فى كل دولة منها يستحق الدراسة، ويؤسفنى أن أقول: إنى لم أره مكتمل الشكل والموضوع فى قطر من أقطار الفيحاء.

هناك مجتمعات لا تعترف بالحدود والقصاص، ومجتمعات لا تعترف بدساتير الحريات والحقوق، ومجتمعات لا تعترف بالحلال والحرام، وأخرى تترك الصلاة والصيام وأخرى . . الخ.

وأعداء الاسلام كلما رأوا جزءاً منه أصابه الشلل، سارعوا بالتدخل الماكر ليزيدوا الطين بلة، أو ليزيدوا المريض علة.

ونحن نصرخ بأولئك المسلمين المفرطين أن يرجعوا إلى دينهم كله، لا يدعون منه شيئا، ولا يفرطون فى جانب، ولا يأذنون لعدو سافر، ولا لصديق جاهل أن يصرفهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، فذاك وحده طريق النصفة والانتصار.

إن شُعب الايمان التى تبلغ السبعين موزعة توزيعا دقيقا على الدائرة الرحبة التى تمتد اليها وظيفة الايمان وتنتشر فيها أشعته.

ولما كان الاسلام علاقة تشمل النفس والمجتمع والدولة وتتناول المعاش والمعاد فى إطار من معرفة الله ورقابته فان تعاليمه تشبه شبكة الأعصاب المبسوطة فى الكيان الانسانى كله لا تخلو منها جلدة بين الرأس والقدم.

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ومن الخطأ تصنيف تعاليم الاسلام على أساس فنى، وتصور أن بعضها يقوى وينمو. فى حين أن بعضها الآخر يذبل ويذوى.

إن ذلك قد يجوز فى عالم الدراسات النظرية حيث ينجح الطالب فى مادة ويرسب فى أخرى لأنه استوعب الأولى وأهمل الثانية.

أما فى المجتمع الكبير فان اعتلال بعض الاسلام ينقل العلة الى البعض الآخر على عجل أو على مهل ما لم تسارع بالاستشفاء والتصون وإنفاذ أوامر الله فى كل مجال.

فضعف العقيدة مثلا ليس يترك أثره الردئ فى صلة المسلم بربه بل يتعدى ذلك إلى موقف الفرد من الجماعة، وموقف الدولة من العالم أجمع.

وترك الصلاة ليس معصية خاصة فقط بل هو ذريعة إلى انهيار الأخلاق وانتشار الآثام.

وإهمال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس برودا فى عاطفة التدين فقط، ولكنه آية على موت الضمير الاجتماعى وتلاشى رسالة الأمة.

والاستعمار الحديث فى حملته على الاسلام لا يقوم بهجوم شامل على كل شئ، إنه أذكى من ذلك وأدهى.

إنه يصر على إماتة بعض التعاليم أو سرقتها من الوعى العام عالما أن ما بقى سيتبع ما أخذ.

ترى هل سنخدع عن ديننا أم ندافع عن كل ذرة منه.

* * *

جهاد الغرباء

كان التاريخ الاسلامى يتدحرج خلال الأعصار الأخيرة لفساد الحكام، وعجز العلماء، وذهول الأمة جمعاء عن وظيفتها ورسالتها.

لكن تسجيل هذه الهزائم والاعتراف بنتائجها لم يقع إلا منذ خمسين سنة تقريبا، فقد انسحبت الجامعة الاسلامية من الميدان العالمى بعد تنكيس راية الخلافة، وأخذت الثقافة الاسلامية بعدها تضمحل.

لقد كانت هذه الثقافة زاحفة فى الماضى، ثم توقفت مكانها أيام الضعف، ثم تراجعت وانكمشت أيام الهزائم، تاركة وراءها فراغا تملؤه الثقافة الأجنبية والأفكار الدخيلة.

وفى رسالة وجيزة عن الأدب والحياة قرأت هذه السطور:

هزمت الفكرة الاسلامية فى الحرب العالمية الألى، ثم انتهت دولة الخلافة بعد ذلك بقليل، وبرز دعاة الحضارة الأوروبية بوجوههم سافرة، ولقيت دعوتهم رواجا، خاصة عند الشباب الذى عاش فى جو الثورة المغرى بالتمرد على كل قديم، والذى وجد فى بريق الحضارة الأوروبية ما ينادى شبابه الى مواطن الهوى، فأخذ يشارك فى المجتمعات المختلطة، وأقبل على تعلم الرقص الغربى، ويمتع نفسه بالمشاركة فى احتفال الأوروبيين بأيام الأحد، وبرأس السنة الميلادية خصوصا فى المدن الكبيرة كالاسكندرية والقاهرة حيث كانت تحتل الجاليات الأجنبية مكانا بارزا فى الهيئة الاجتماعية، بما تملك من مصانع ومتاجر وفنادق، وبما لها من معاهد وأندية. وبما كانت تكفله لها الامتيازات الأجنبية من مزايا.

وتردى الناس فى حمى التقليد للأجانب فى كل شئ، فى لباسهم وفى طريقة حياتهم وفى كلامهم وملبسهم.

وأصبح الرجل يخجل إن أخطأ فى ذلك، ولا يخجل إن جهل أمور دينه أو جهل لغته أو عبث الدنيا بتقاليده.

يقول الدكتور طه حسين بعد أن يسرد ما اقتبسته مصر من نظم الغرب فى مختلف مظاهر حياتها الحديثة – وذلك فى كتابه: مستقبل الثقافة فى مصر – :

«وإنى لأتخيل داعيا يدعو المصريين إلى أن يعودوا إلى حياتهم القديمة التى

ورثوها عن آبائهم فى عهد الفراعنة، أو فى عهد اليونان والرومان وفى عصرها الاسلامى، أتخيل هذا الداعى وأسأل نفسى، أتراه يجد من يسمع له؟ فلا أرى إلا جوابا واحدا بتمثل أمامى، بل يصدر من أعماق نفسى، وهو أن هذا الداعى – إن وجد – لم يلق بين المصريين إلا من يسخر منه ويهزأ به!!

هكذا يقول الدكتور الأوروبى الثقافة والوجهة!

وهو فى مقالته البينة الدلالة يرى الدعوة الى الحياة الإسلامية مدعاة الى الهزء والسخرية، ثم هو يضم العصر الاسلامى الى عهود اليونان والرومان والفراعنة الأقدمين أى الى العهود التى بادت وانقضى أجلها ولا سبيل الى بعثها.

وهذا الكلام المحقور هو قرة عين الاستعمار، وهو ما يبذل الغزاة الجدد جهودا مضنية لإشاعته، وإقناع الجماهير به حتى لا يكون إسلام، ولا مسلمون.

لكن الأمة الاسلامية فى المشارق والمغارب قاومت القتلة وأجراءهم!

ومع أننا لا نزال ضعافا فى جبهات شتى، ومع أن وساوس الجريمة لا تزال تغلى فى أفئدة خصومنا، ومع أن المخلصين لدينهم تحملوا مغارم فادحة وهم يدفعون عنه، مع ذلك كله فان الواقفين بجانب الإسلام صامدون آملون.

وقد التقطوا الراية التى سقطت على الثرى من نصف قرن وهم بسبيل رفعها سياسيا وثقافيا باذن الله.

وأول بشائر الخير أن جمهرة المسلمين لم تزهد فى دينها، ولا أساءت الظن بأصالته وصدقه، ولا هى خدعت بالأديان والمبادئ الأخرى فحسبتها أزكى مما لديها، إن الأمر – فى الإسلام وغيره – كما قيل:

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج طريقان شتى، مستقيم وأعوج!!

والمعركة تزداد على الأيام حدة، وبقدر ما يبدى المسلمون من صلابة ينمو نشاط خصومهم وتتسع دائرة هجومهم.

بل أن القوى المتناقضة تناسب ما بينهما – ولو إلى حين – لتستطيع اصابة الإسلام فى مقاتله، وفض الأنصار المتحمسين عنه.

وذلك يكشف عما يتعرض له المجاهدون الصادقون من متاعب وأحزان،

على أننا لن نخون الله ورسوله ما حيينا، حتى نورث الاسلام أبناءنا كما ورثناه عن آبائنا.

بل حتى نمسح آثار الهزائم الشائنة التى لحقت به فى غير ميدان.

ولقد شكا لى صديق ما يلقاه العاملون للاسلام من غمط وهوان، قال: إنهم يتجاهلون فى حياتهم، وتسحب عليهم أذيال النسيان بعد مماتهم.

فمحمد فريد وجدى صاحب دائرة المعارف الاسلامية، ورئيس تحرير مجلة الأزهر، والأستاذ محمد الخضر حسين الامام الورع والأديب المؤلف والشيخ محمد عبد الله، والشيخ عبد الوهاب خلاف . و . . و . . و

هؤلاء تناستهم المحافل الرسمية، وطوت ذكراهم فى الوقت الذى تفرد فيه ليالى لتكريم ذكرى سيد درويش وزكريا أحمد وأضرابهم ممن برزوا فى ميادين التسلية واللهو والغناء والموسيقى.

قلت: يا صديقى إن المجتمع الذى يزدرى أبا حنيفة ويكرم أبا نواس مجتمع تافه!

ولكن هذا المجتمع هو الذى صنعه الغزو الثقافى ليجعل الناشئة الاسلامية تشب وهى مرخصة للحق مغلية للباطل، صادة عن الايمان عاشقة للهزل، مستهينة برجال المعرفة الاسلامية معظمة للأقزام أو العمالقة فى اية معرفة أخرى.

وقد مات منذ فترة العلامة محمد فؤاد عبد الباقى فما شعر بمماته أحد، ولا تحدثت عنه فى مصر صحيفة، وهو الرجل الذى ألف المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث - وقد طبعت منه هولندا ٤١ جزءا - حتى وفاته، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، وموطأ مالك، وعشرات من البحوث والمقالات.

وقد كف بصر الرجل الكبير وهو يخدم الثقافة الاسلامية، فلما مات أهيل عليه التراب فى صمت، ومضى لا يلوى على شئ.

ومشيت بنفسى فى جنازة المجاهد المؤمن صالح حرب «باشا» ولو شئت أن أعد المشيعين لجثمان الراحل الطيب لعددتهم.

إن عشرات السنين فى خدمة الاسلام نسيتها القاهرة السكرى من غير خمر، المشغولة بغير شئ، الشاردة فى الحياة لا تعرف لها وجهة!

وأسارع إلى أن العاملين لله ما يعنيهم رأى الناس فيهم، وما يثبط هممهم أن يجدوا الإنكار والازورار، فإن نشدانهم لوجه الله وحده، وتطلعهم إلى ثوابه الدائم هو غرضهم الأعلى.

ولكنى آسى لما قصصت من عقوق، لما فى ذلك من دلالة على سقوط المجتمع، وهبوط قيمه، ورواج الباطل فيه، ووحشه الحق بين أهليه.

وإذا كان المجاهدون للاسلام فى مجالات الثقافة يلقون هذه الجهامة، فهم فى مجالات الحكم لا يستطيعون أن يضعوا قدما!!

ذلك أن العداوات العالمية الرهيبة لهذا الدين استطاعت بوسائلها الباطنة والظاهرة أن تملأ هذا الطريق بالضحايا.

ولقد تساءلت: لماذا قتل «عدنان مندريس» فى تركيا؟

فقيل لى إن الجريمة التى استحق بها الشنق محاولته الخفية أن يعود بتركيا الى الاسلام!

وقد بدأ ذلك فى إعادته الأذان باللغة العربية الى المساجد.

إن اليوم الذى سمع فيه الأتراك كلمة «الله أكبر» تشق أجواء الفضاء من ذرى المنائر كان يوما مشهودا، وبلغ جيشان المشاعر بالناس فى السكك، أن الدموع غلبتهم، وصرخات الايمان والاستبشار عمتهم.

فهل تدع الصليبية العالمية هذا الجرم يمر من غير عقاب؟؟

وكذلك كان مقتل الزعيمين الأفريقيين المسلمين أحمدو بللو، وأبى بكر تفاوه.. إن الجريمة التى استحقا بها القتل هى سيرهما بالاسلام فى وسط أفريقيا سيرا حثيثا عاقلا متئدا.

كيف يسكت خصوم الاسلام على ذلك؟

وقتل الرجلان وعشرات آخرون فى مجزرة أعقبها صمت مفتعل مقصود.

ولكن الله العدل تتبع القتلة بالقصاص، ومنذ عشرين شهرا والدماء تراق بغزارة فى نيجريا.

وتحاول الكاثوليكية العالمية بتعصب وغضب أن تقسم نيجيريا قسمين،

وأن تجعل من «بيافرا» أداة لها فى تنفيذ مآربها. تلك المآرب التى بدأت بسفك الدم الإسلامى دون ما سبب.

إننا نشعر بأن العمل للاسلام مثار قلق وأذى. وأن المجاهدين فى سبيل الله لا يرون إلا النظر الحانق، والجو الخانق..!!

ليكن، فلن ندع الاسلام أبدا، محتمين بالله مما نجد ونحاذر!!

﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نتوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [ابراهيم: ١٢]

* * *